ضياء العزاوي

المنحى الصعب

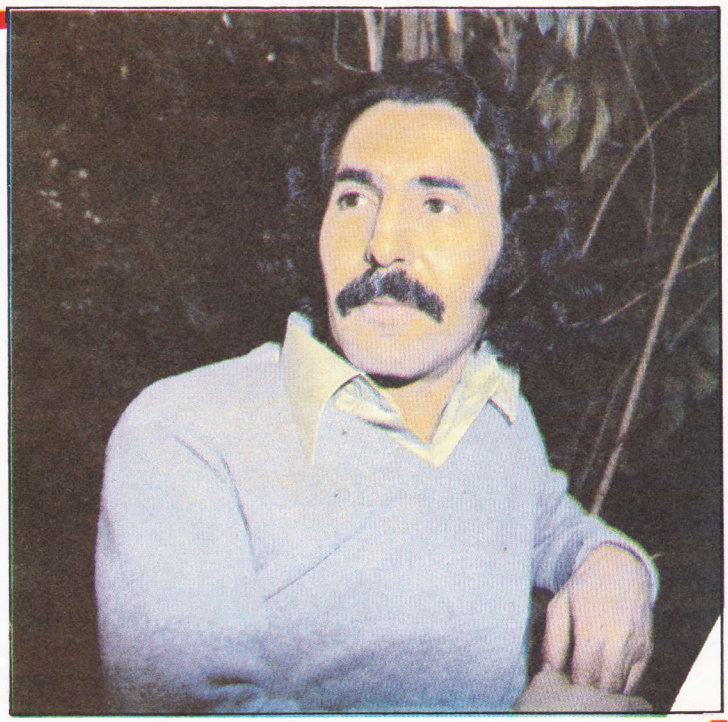

فاروق يوسف

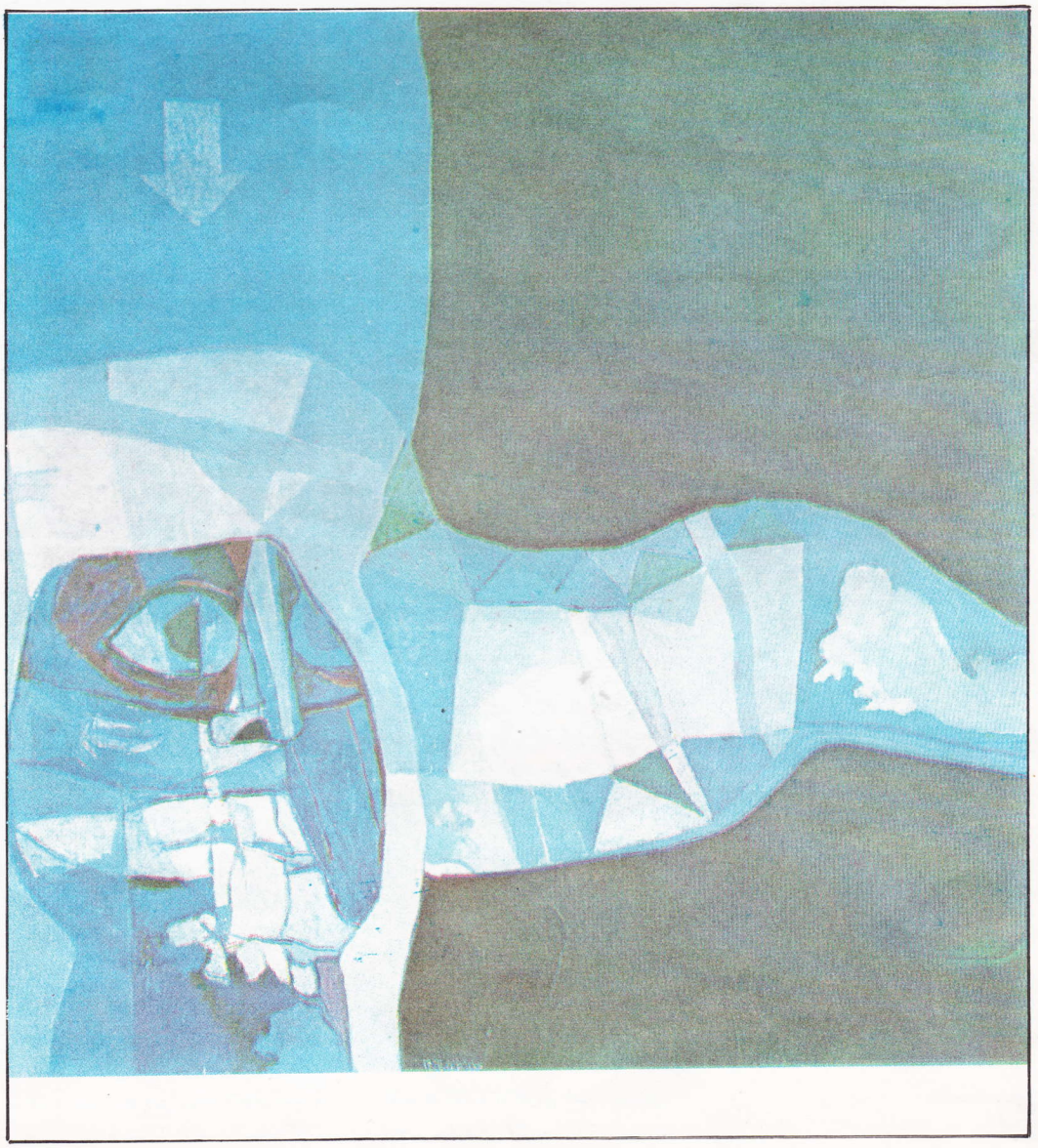

ما يقال عن ضياء العزاوي كفنان من آراء لا يصح ان يقال دائماً . فهو من الفنانين النادرين في العراق ، الذين يهمهم الخط البياني للكتهم الاسلوبية . ثم ان ولعه بالافكار ، ذلك الذي قاده الى ابعد من استنطاق الحرف ، كما حاول آخرون ، يشكل لديه دافعاً قوياً نحو تعزيز القدرة الانشائية ، المتدافعة والمتداخلة بين مجموعة مناخات . لهذا يمكننا ان نؤكد بثقة ، ان ضياء العزاوي يقف في الطليعة المغيرة ، والحريصة على الاستفادة من كافة المناهج الحديثة في الفن التشكيلي ، وكافة القفزات التي تحدثها الرؤيا الحديثة للعالم من خلال المنظور التشكيلي ، مع الاحتفاظ بقدمين راسختين في ارض المعطيات الانسانية والفنية التي انشأها الانسان فوق الارض العربية منذ القدم حتى يومنا الحالي .

في هذا المجال ، تكون حالية اعمال العزاوي غير متعارضة مع الطابع الجذري لمجموعة صلاته بالارض التي يقف عليها . وهذا هو ما يجعله فناناً اصيلاً من الخط الاول .

منذ البدء ، جاء اهتمام العزاوي بوحدات الفن العراقي القديم ، غير مفتعل ، فدراسته للاثار ، اكاديمياً فتحت الطريق امامه ، نحو اكتشاف الرمزية والقدرة الايحائية للعمل الفني ، كما استطاع ان يستلهم قوة الايحاء بسهولة عذبة . ثم ان روح الشاعر التي يتملىء بها العزاوي ، جعلته يقف متفرداً بين معظم فنانينا الذين حاولوا استلهام التراث ، فهو الوحيد ، بعد فنانا الخالد جواد سليم ، الذي استحضر غنائية المفردة التشكيلية التي كان يستخدمها الفنان العراقي الاول ، فهو لم

ينقلها لتشغل حيزاً فيزيائياً فوق لوحته ، بل استطاع ان يحصنها باسرارها ووهجها الغنائي الرصين ، وعذوبة الانفعال الذي انتقل من اصابع الفنان اليها ، كما حرص العزاوي حرصاً شديداً على ان لا تكون المفردة المستلة من الماضي ، المحور الاساس للوحة ، بل جاءت لتكمل مجموعة الانفعالات التي تنشىء العمل الفني ، وبهذا استطاع ان يقفز من منطقة الانبهار الحساس والمباشر ، الى التعامل بليونة تامة ، مع روح المفردة ، النابع من طاقتها الرمزية وايحائها الشكلي ، وتطويعها ، وابراز العنصر الخالد ، والازلي ، فيها .

لقد كانت هذه المفردات ، عوناً كبيراً ، في تأصيل الجانب ، الاكثر اهمية ، من جوانب العمل الفني ، لدى ضياء العزاوي ، فهي التي عززت اكثر فاكثر ، وجود الانسان كاسطورة . منذ بداية الستينات ، اي مع اولى الاعمال التي عرضها ضياء العزاوي ، كان الانسان في هذه الاعمال يشغل مساحة مفتوحة ، وفي الاعمال التي تلت بقي الانسان محتلاً لتلك المساحة مع اشغال بعض النقاط الحرجة ، بعد ان نقل العزاوي خطواته ، بين الانسان كمحور مطلق وبين معالجة الانسان كقضية وجود حالي ، وكرهان واقعي .

ان اختصار الرؤيا في ـ كلكامش ـ وغيرها من ملاحم الانسان الاولى ، سواءً كانت مكتوبة ام مرسومة ، يجعلنا نتفهم اكثر فاكثر طبيعة الانجاز الفني والفكري لانسان تلك المرحلة . فهو باختصار ، كان يعالج الخلود بادوات خالدة . فتخلى الانسان عن طابعه الواقعي ، ليدخل عالم الاسطورة ، وليتابع مسيرته نحو المنابع الاولى ، منابع التخيل والحساسية المطلقة .

وبانفاس العزاوي ، في معالجة الانجاز الاول للانسان ، استطاع ان يتلمس الدرب الذي يوصله الى الانسان كاسطورة مرتبطة بجذورها الارضية . وقد شغلت هذه المرحلة حيزاً لا بأس به من الوقت ، ومع انتقال العزاوي بعد سنوات الى معالجة الانسان العربي الفلسطيني . استطاع ، ان يتحايل شيئاً فشيئاً على قناعاته ليُدخل عنصر الشهادة كمكمل لعنصر الخلود ، فتتم للانسان ملامح الاسطورة .

وهكذا حقق العزاوي انجازاً فريداً ، حين اقحم مفرداته التي استلها من سكون الماضي العريق ، في قضية حالية ملتهبة .

في اعمال العزاوي التي زينت الكثير من الكتب والمجلات في تلك المرحلة ، اختصار واع لمجموعة كبيرة من الانهاكات الفكرية المجدية .

وفي تلك المرحلة بالذات ، طرح العزاوي لاول مرة في تاريخ الفن التشكيلي في العراق مبدأ المواجهة .

خلال حرب الايام الستة وبعدها ، ولدت الحاجة بشكل ملح الى فن يقيني . به من المداهمات الاسلوبية بقدر ما به من المعرفة الصادقة في انجازها . وكانت هذه الحاجة تتوخى السرعة في الانجاز ، ولقد عرف عن ضياءالعزاوي ، نشاطه ، وغزارة انتاجه لكنه ، مع ذلك لم يستطع ان يتوج انفعاله ، الا بالتخطيطات . ولو ان هذه التخطيطات رسمت من قبل فنان اخر لمرت سريعاً ، ولكن غزارة العزاوي المعروفة ، واستفادته من التضادات الشائعة في مناخ اللوحة ، ومهارته في التخطيط ، وتحميله للخط الكثير من الانفعال ، والمهارة في التلقي ، كل هذه الاسباب ، حفظت لتلك التخطيطات اهميتها ، الفنية والتاريخية .

حقاً ، لقد كانت مساهمة جديرة بالاحترام في معركة الانسان العربي ، واقتحامه للمجهول ، ولهذه التخطيطات ، اهمية شخصية واسلوبية ، نستطيع من خلال فهمها ، اعتبار هذه التخطيطات نقلة نوعية كبيرة ، في طبيعة فن ضياءالعزاوي ، اذ انها اقحمت اللوحة في معالجات ملتهبة ، واملت على الاسلوب وحدات جديدة ، مكتسبة من ساحة المعركة ، انها وحدات فائرة وفورية ، استطاعت بنجاح تحريك الوحدة الساكنة وتفجير الانفعال الكامن في اعماقها .

بالرغم من هيمنة المضمون على الاعمال المنتجة في اواخر الستينات وبداية السبعينات ، غير ان هاجساً اسلوبياً ضخماً كان يلح على العزاوي ، حتى استطاع في خاتم الامر ، ان يفرغ الوحدة التشكيلية من مضمونها التاريخي ، واصبحت ولادة معنى جديد لها عملية عسيرة على فنان قاد خطاه في اعماق الوحدة نفسها ، بحيث اصبح انعدام السيطرة واضحاً في كثير من الاعمال .

هنا ، فقط ، اصبحت مخطية الاسلوب عبئاً كبيراً على اللوحة .

فمن ناحية ، ظل اهتمام العزاوي منصباً على صراع الانسان مع نقائض مصيره ، ومن ناحية اخرى ، فقد كبر حجم الولع الاسلوبي ، وتحقيق اكبر قدر ممكن من انسجام الالوان والكتل . وهكذا وصل الامر بالعزاوي الى ان يعرض الصراع الانساني بشكل جميل ، وهكذا ولدت لوحات للفجيعة الانيقة التي اخترعتها مخيلة العزاوي وتجاربه التقنية ، والتي ابعدت العمل الفني عن محوره الاساس ، وعن الاهداف التي كان يصبو الى الوصول اليها الفنان ضياءالعزاوي . في السبعينات ، تيقن عدد كبير من المهتمين : أن ضياءالعزاوي ، وصل الى مرحلة الحيرة الاسلوبية ، ولكن ، كان من المؤكد ان فناناً ذكياً مثل ضياء يستطيع بلباقة سريعة ان لا يركن لهذا الضيق الاسلوبي ، ويخرج الى فضاء واسع ، حيث الهواء انقى وبالفعل ،

في باريس

العزاوي

يعرض اعماله

والطاهر بن جلون يكتب :

اقام الفنان ضياء العزاوي معرضه الشخصي في كالري فارس بباريس للفترة من ٢٧ الى ٢١ حزيران وقد لاقى المعرض ترحاب الاوساط الفنية وكتب عنه الكثير .. الطاهر بن جلون يكتب في دليل المعرض :

« العالم محكوم بعنف هذا القرن . نحن نعرف انسان هذه الارض المسلوبة ،

الرسام العربي يعتبر هذا العصر باذرا رسوماته .

ورسومات ضياء العزاوي باشعاعها غير منفصلة عن ذلك الفتات .

يظهر ضياء العزاوي التاريخ مثلما هو سائر في جسد وروح هذه الشعوب : يبرز لنا اللامفهوم .

انها فتحة غامضة في اللامنظور .

يقدم لنا العزاوي الجرح المبضع بالاجل في الجسد المجهول . جسد مكموم مقيد معلق في سماء شديدة السواد .

انه رسم منهك بالزمن . بعنف هذا الزمن .

العين هنا موجودة ليس للنظر . انها جرح في الوجه تمزق يمامة واليمامة ليست بزمن . انها هي لغز . انها هي حروف الهجاء العربية مربوطة في جسد . القدر في نظره .

الحروف هنا تعيد الاسطورة المودعة في الحاضر .

حروف معتومة . مقلوبة . موضوعه لتشويش اليقين .

حروف موجعة لتفتيد « الحلم الشرقي » .

نقطة خمود في هذا الرسم الطبيعي المسكون بضرورة الحرية .

كل علامات العالم تتجمع في جوف اليد الممدودة . يد جميله عاليه في السماء غير المبالية . انها يد غير مكتملة .

زرع ضياء العزاوي هذه الرسومات بلون متقطع في تغره الافق والامل قادم من العراق يساهم ضياء العزاوي في الحركه الثقافيه ذات الطابع المتجدد في الوطن العربي .

رسوماته شرعيا متاصلة في الخيال وواقع الانسان العربي ولكنها تفضي الى الكون .